مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 15 العدد 3 (السداسي الثاني 2023م)
ص. 133- 156

الصنعة النقدية عند الثعالبي من خلال تفسيره الجواهر الحسان

The Art of Criticism According to al-Thaalibi in His Interpretation 'al-Jawahir al-Hissan'

د. بلال أودني*
جامعة باتنة1، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر) bilal.oudni@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/09 تاريخ القبول: 2023/07/31 تاريخ النشر: 2023/12/15

ملخص:

شاع عند كثير الدارسين أنّ تفسير الجواهر الحسان للثعالبي مجرّد تلخيص لتفسير ابن عطية، ليس له بعد الجمع والترتيب إلاّ عمل قليل وأثر فكري ضئيل. وقد وقفت على خلاف ذلك، فظهرت لي كثرة انتقاداته واختياراته، هذا ما دفعني للكتابة في هذا السياق، محاولا بيان منهج الثعالبي في الانتقاد، من خلال الإجابة عن المجالات التي استغرقها، والمرتكزات التي اعتمد عليها، مع بيان أسلوبه في ذلك. وتتضح أهمية الدراسة باعتبارها متعلّقة بتفسير كتاب الله تعالى، وشرف العلم بشرف المعلوم، كما أنّها تظهر جانبا مشرقا من إسهامات المدرسة الجزائرية في تفسير القرآن الكريم، وتتبع مسائله بالبحث والتدقيق. ولتحقيق الأهداف المرجوة والإجابة على الأسئلة المطروحة سلكت المنهج الوصفي التحليلي، وقد توصّلت إلى جملة من النتائج أهمها بيان تعدد مجالات النّقد عند الثعالبي، واستناده في ذلك إلى القرآن والسنة، وقواعد الترجيح، واعتماده على حمل المعنى على العموم ما أمكن، وحمل اللفظ على ظاهره إلاّ إذ احتمل معنى يقدح في عصمة الأنبياء، فوجب تأويله. وقد امتاز أسلوبه بالأدب والاحترام لأهل الفضل والعلم.

الكلمات المفتاحية: الثعالبي؛ الجواهر ؛ الحسان؛ النقد؛ التفسير.

* المؤلف المرسل

Abstract:

It is widely believed among scholars that al-Thaalibi's «al-Jawahir al-Hissan» is merely a condensed version and a summary of Ibn Atia's interpretation, lacking significant original work and intellectual contribution. However, my findings contradict this belief as I discovered the abundance of criticisms and selections within the text.

This motivated me to write within this context, aiming to elucidate al-Thaalibi's methodology of criticism by addressing the areas he delved into and the foundations he relied upon, while also highlighting his style in doing so. The significance of this study lies in its connection to the exegis of the Book of Allah (Quran) and the honor associated with knowledge itself. Furthermore, it reveals a bright aspect of the Algerian School's contributions to the interpretation of the Noble Quran, with a thorough examination and scrutiny of its issues.

To achieve the desired objectives and answer research questions, I adopted a descriptive and analytical approach. The study yields several results, most notably the multiplicity of al-Thaalibi's criticism fields and his reliance on the Quran, Sunnah (Prophetic traditions), weighting rules, and a certain tendency to extrapolate meanings whenever possible, while interpreting explicit wordings unless they undermine the infallibility of the prophets, necessitating interpretation. His style is distinguished by politeness and reverence towards virtuous scholars.

Keywords: al-Thaalibi, al-Jawahir, al-Hissan, criticism, exegis.

مقدمة:

يحظى تفسير "الجواهر الحسان للثعالبي" بشهرة واسعة قديما وحديثا، وقد صرّح صاحبه أنّه عمد إلى تفسير "ابن عطية" فلخّص مهماته، وأسقط كثيرا من التكرار الواقع فيه، وما كان من الشواذ في غاية الوهي، وزاده من غيره جواهر ونفائس لا يُستغنى عنها[1]، وقد توقّف بعض الدارسين عند العبارة الأولى، فاعتبروا تفسيره مجرّد تلخيص "للمحرّر الوجيز لابن عطية"، ليس له بعد الجمع والترتيب إلاّ عمل قليل، وأثر فكري ضئيل[2]. هذا ما دفعني لكتابة هذه الورقة البحثية، محاولا التركيز على الممارسة النقدية في تفسير "الجواهر الحسان"، من خلال الإجابة على الأسئلة التالية: ما هي أهم مجالات النقد عند "الثعالبي"، وما المرتكزات التي استند عليها؟ كيف كان أسلوبه النقدي؟

وتظهر أهمية الدراسة في تعلّقها بفهم كتاب الله سبحانه وتعالى، كما تُبرز جانبا من جهود المدرسة الجزائرية في التفسير، وتتبع مسائله بالبحث والتحرير.

وتهدف أساسا إلى بيان القيمة النقدية عند "الثعالبي"، وتصحيح المفهوم المعتقد عند البعض حول تفسيره، بالإضافة إلى فتح آفاق في هذا المجال للباحثين؛ لتوسيع الدراسة وتناولها من جميع جوانبها؛ تنميّة للملكة العلمية، وتعميما للفائدة، وتأكيدا على خلق الوفاء الذي ينبغي أن يحمله الخلف للسلف، بعيدا عن التنكر لأعلام هذا البلد الولود للفكر والعلم والإبداع.

وللإجابة على الأسئلة المطروحة، وتحقيق الأهداف المرجوّة سلكت المنهج الوصفي التحليلي، واعتمدت على خطة انتظمت عقدها فيما يلي:

مقدمة أتبعتها بثلاثة مطالب؛ عرفّت في **الأول** بألفاظ ومصطلحات عنوان البحث، أتبعته **بالمطلب الثاني** متناولا فيه أهم جوانب النّقد ومرتكزاته عند "الثعالبي"، وأما **الثالث** فلبيان أسلوبه من حيث لزوم الأدب أثناء الردّ على المخالف. أتبعت ذلك **بخاتمة** ضمّنتها أهم النتائج والتوصيات، أعقبتها بفهرس للمصادر والمراجع المتعمدة. وبالله التوفيق.

---

[1] ينظر : الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، (5/ 643).

[2] ممن قال ذلك محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون، (179/1).

المطلب الأول: مقدمات تعريفية

تتناول هذه الورقة البحثية الممارسة النقدية "للثعالبي" من خلال تفسيره؛ ومعلوم أنّ بيان الألفاظ والمصطلحات الواردة في العنوان أمر أساس في الصياغة العلمية، ويأتي هذا المطلب للتعريف بها ضمن ثلاثة فروع.

الفرع الأول: التعريف بالثعالبي

سأورد في هذا الفرع ترجمة موجزة عن "الثعالبي"، معرجا على اسمه وكنيته ولقبه، ومولده ونشأته، بالإضافة إلى رحلاته وشيوخه، لأختم بذكر وفاته وثناء العلماء عليه.

1- اسمه، كنيته ولقبه:

هو "عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف"، يُكنى "أبا زيد"، ويُلقب "بالثعالبي" نسبة إلى "الثعالبة" وهي قبيلة مشهورة[1]؛ ذكر "ابن خلدون" أنهم كانوا بمتيجة من نواحي "الجزائر"[2]، وهي منطقة تقع حاليا "بواد يَسر" بالجنوب الشرقي لمدينة "الجزائر".

2- مولده ونشأته:

غالب من تناول ترجمة "الثعالبي" ذكر أنّه ولد عام 786هـ[3]، بينما حكى "أبو العباس التنبكتي" الشّك في ذلك؛ بين 785 و 786 هـ[4]. أمَّا عن نشأته؛ فلم تورد التراجم التي وقفت عليها ما يتعلق بذلك، إلاّ أنّ القرائن تدل أنَّه نشأ في بيت علم وورع ومما يؤكد هذا؛ رحلته في طلب العلم وهو في مقتبل شبابه عام 802 هـ كما ذكر ذلك عن نفسه؛ حيث جالس ثُلَّة من كبار علماء بجاية، وخصَّ منهم "عبد الرحمن الوغليسي" "والمانجلاتي"، ووصفهم بأنهم أهل علم وفقه وورع، واستدل على ذلك بأنهم لا يعرفون الأمراء ولا يخالطونهم[5]؛ فرحلته في هذا السنّ وتمييزه لأفاضل العلماء، وثنيّه الركب في مجالسهم يدل أنه ترعرع في بيت علم وورع، وأنّه أخذ مبادئ العلوم وحفظ القرآن في الصغر على عادة أغلب أهل العلم والفضل.

---

[1] ينظر : السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع،(152/4).

[2] ينظر : ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (84/6).

[3] ينظر : محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، (382/1). الزركلي، الأعلام، (331/3).

[4] ينظر : التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (ص: 260) .

[5] ينظر : الثعالبي، الجواهر الحسان، :(171/5).

3- رحلاته وشيوخه:

مما يُحسب "للثعالبي" أنه أرّخ لرحلاته في طلب العلم، وذكر شيوخه الذين استفاد منهم في كل مرحلة، ممَّا يعين على معرفة منهج العلماء في زمانه في التدرّج في نيّل العلوم وأهم الحواضر العلمية التي يتوجه إليها من علت همّته. وقد كانت أول رحلات "الثعالبي" إلى "بجاية" سنة 802هـ ومكث فيها سبعة أعوام، ثم رحل إلى "تونس" ثم إلى المشرق، بعدها رجع إلى "تونس"، وقد استفاد في كل مرحلة من تلك المراحل من علماء كبار في كل قطر من تلك الأقطار، ومن شيوخه "أبو عبد الله الأبّي"، حضر عنده "شرح مسلم" و"المدونة" و"الرّسالة" و"ابن الحاجب"... واستفاد كثيرا من الحافظ "ولي الدين العراقي" وأخذ عنه علوم الحديث، كما يعتبر "ابن مرزوق الحفيد" من أهم شيوخه، أخذ عنّه الموطأ، ودرس عند "البرزيلي" و"المنجلاتي" و"الغبريني" و"الشريف التلمساني" وغيرهم كثير ...

4- وفاته وثناء العلماء عليه:

ذكر "السخاوي" أن وفاة "الثعالبي" كانت سنة 875هـ، بيّنما حكى "محمد مخلوف" الشك في ذلك؛ بيّن سنة ست أو خمس وسبعين وثمانمائة[1].

وقد حظي "الثعالبي" بالقبول والثناء من طرف أهل العلم، قال عنه "السخاوي": «كان إماما علاّمة مصنّفا؛ اختصر "تفسير ابن عطية" في جزأين، وشرح "ابن الحاجب الفرعي" في جزأين، وعمل في الوعظ والرقائق وغير ذلك»[2]. و قال "البكري": «كان شيخنا "الثعالبي" رجلًا صالحًا زاهدًا عالمًا عارفًا وليًا من أكابر العلماء، له تآليف جمة أعطاني نسخة من تفسير "الجواهر" لا بشراء ولا عوض، عاوضه اللَّه بالجنة». وقال "التنبكتي": «الشيخ الإمام الحجّة العالم العامل الزاهد الورع ولي اللَّه الناصح الصالح العارف باللَّه "أبو زيد"، شُهر "بالثعالبي"، صاحب التصانيف المفيدة من أولياء اللَّه المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد اللَّه الصالحين». وقال أيضا: «وهو ممن اتفق الناس على صلاحه وإمامته، أثنى عليه جماعة من شيوخه بالقلم والدين والصلاح كالإمام "الأبي" و"الولي العراقي" والإمام "الحفيد ابن مرزوق"»[3]. ومن أهم ما اشتهر به "الثعالبي" تفسيره "الجواهر الحسان"، وفي الفرع الموالي تعريف به.

---

[1] ينظر : السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (152/4). محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، (1/ 382).

[2] السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (152/4).

[3] التنبكتي، نيل الابتهاج، (ص: 257).

الفرع الثاني: التعريف بتفسير الجواهر الحسان

لن أسهب كثيرا في التعريف بتفسير "الثعالبي"، وسأكتفي بذكر أهم مصادره، ومنهجه العام، لأختم ببيان قيمته العلمية وثناء العلماء عليه.

1- مصادره: ذكر "الثعالبي" أن عمدته هو تفسير "ابن عطية"؛ حيّث ضمّنه المهم منه وزاد عليه فوائد جمّة، كما اعتمد على قرابة مائة مصدر منها: مختصر تفسير "الطبري" "للخمي" ومختصر البحر المحيط "للصفاقسي"، وأحكام القرآن "لابن العربي"... إضافة إلى "الصحيحين" و"موطأ مالك" و"سنن أبي داود" و"الترمذي"... دون أن نغفل كتب الزهد والرقائق "كالإحياء للغزالي" و"العاقبة للإشبيلي"، وفي الفقه اعتمد على عديد المصادر خاصة "مدونة سحنون" و"مختصر ابن الحاجب الفرعي"، و"البيان والتحصيل لابن رشد"...[1].

2- **منهجه العام**: بيّن المؤلف في مقدمته بعد حمد الله والثناء عليه مقصده من تفسيره؛ حيث عمد إلى تلخيص مهمات "ابن عطية" مع الزيادة عليه بنقل فوائد من كتب الأئمة وثقات أعلام الأمة؛ سعيا منه إلى نيل الأجر والثواب، ثم أوضح رموز الكتاب، فحرف: (ت) يقصد بها نفسه، وهي بدلا من (قلت)، وأما (ع) "فلابن عطية"، و(ص) "للصفاقسي"، وما زاده على "أبي حيان" جعل له علامة (م)، وأما ما ظهر له من اختيار فصدّره ب (قلت). ثم أورد أهم المصادر الحديثية التي نقل عنها. فجاء كتابه محشوا بنفائس الحِكَم، وجواهر السُنن الصحيحة، والحِسان المأثورة لذا سمّاه "بالجواهر الحسان في تفسير القرآن".

ثم نقل مقدمة "ابن عطية" معتمدا في ذلك الاختصار، متطرقا لفضل القرآن وإعرابه وتفسيره، وساق بابا في أسماء القرآن، وبابا في الاستعاذة بيّن حكمها ومفهومها، وبعدها شرع في تفسير القرآن وفقا لترتيب المصحف، والمُلاحظ أنّه اهتم ببيان المكي والمدني كما أورد فضائل السور، ووقف عند أسباب النزول إذا وجدت، ويقدم في كثير من الأحيان ما ورد في "الصحيحين"، كما يستدل بالنصوص الشرعية، وغالبا ما يورد الأحاديث من غير إسناد، ويعتمد على النّحو واللّغة والشعر ويتطرق للقراءات، وليس له عناية كبيرة بنقل الأقوال الفقهية وتشعيباتها، كما أنّه تعقب "ابن عطية" في كثير من المواطن، واعتنى أيضا ببيان اختياراته _ أي "الثعالبي" _ وكثيرا ما يوافق "الطبري" فيما ذهب إليه، وكذا "أبو بكر بن العربي".

[1] ينظر : الثعالبي، الجواهر الحسان،(1/ 117).

3- مكانته العلمية: حظي تفسير "الثعالبي" بمكانة علمية مرموقة، ومما يبيّن ذلك ثناء العلماء عليه قديما وحديثا، فهذا "البكري" بيّن فضل "الثعالبي" واستدل على ذلك بمنحه تفسيره دون عوض، ودعا له أن يعوّضه الله بالجنّة[1]، و"ابن مرزوق" نظر فيه وأمعن النّظر، فَسُرّ به سرورا كثيرا ودعا له بالخير، وقد أثنى على تفسيره "محمد بن الخوجة" حيث قال: «وأيّم الله إنه لتفسير جليل قد فصّل مقاصد الذكر الحكيم أحسن تفصيل، وحوى عباب المنقول، واشتمل على لباب المعقول، وأتى من درر الفرائد بما يبهر العقول، ومن غرر الفوائد بما تذعن له الفحول...». وقال "ابن زكري" أنّه تفسير جليل، عار من شبهات الضلال. وقال عنه "ابن سماية": « تفسير حوى من نوابغ البيان أوضحها، ومن نقل الأقوال أمتنها وأرجحها، طوى كشحة عمّا ضعف نقله، وأفرغ نصحه فيما جزل نفعه وجلّ فضله، انتخل التفاسير انتخالا، وروق منها ما صفا شربه زُلالا حلالا، وضرب بما يشم رائحة البدعة عرض الجدار، وشخّص للقارئ أخلاق الصحابة والسلف الأخيار»[2].

وقد أثنى عليه "حسين الذهبي" واصفا إيّاه بالمفيد، جامع لخلاصات كتب مفيدة، وليس فيه ما في غيره من الحشو المُخِل، والاستطراد المُمِل[3].

ونظرا لقيمته العلمية والثناء الذي حظي به فقد انتشر في زمانه انتشارا واسعا؛ حيث وصل إلى حواضر العلم ومنابعه، على غرار "بجاية" و"تلمسان" و"فاس"، كما حُملت نسخ منه إلى "مكة" و"المدينة"، وأرسلت نسخة منه إلى "بيت المقدس". هذا ما يبيّن حرص أهل العلم على تحصيله لما فيه من فوائد ودرر، حتى أنّ أحد الفقهاء في وقته باع جبته وكان لها ثمن معتبر لشرائه. وكان صاحبه "أبو عبد الله المازوني" ليس له عمل إلا نسخ تفسير الثعالبي لكثرة الطلب عليه[4].

وممّا لاحظته في تفسيره عنايته بالنّقد، وقبل بيان منهجه في ذلك يستحسن التقديم بتعريف النّقد، وهذا ما سيتّضح في الفرع الموالي.

---

[1] ينظر: التنبكتي، نيل الابتهاج، (ص: 258).

[2] نقلا عن مقدمة عمار الطالبي، الجواهر الحسان، الثعالبي.

[3] ينظر: حسين الذهبي، التفسير والمفسرون،(179/1).

[4] نقلا عن مقدمة عمار الطالبي، الجواهر الحسان، الثعالبي.

الفرع الثالث: تعريف النقد

قبل بيان الصنعة النقدية عند الثعالبي سأورد تعريف مصطلح النّقد من حيث اللغة والاصطلاح، وفيما يلي بيان ذلك.

1- لغة: ذكر "ابن فارس" أن النون والقاف والدال أصل صحيح يدل على إبراز شيء وإظهاره، يقال نقد الدرهم؛ كشف عن حاله في جودته، فيميّز عن غيره، وتقول العرب: ما زال فلان ينقد الشيء، إذا لم يزل ينظر إليه. ويُستعمل النّقد لوصف الشيء الجيّد، يقال: ودرهم نقد: وازن جيد.. كما يستعمل لبيان ما يستقبح، ومن ذلك: النقد في الحافر، وهو تقشره. حافر نقد: متقشر. والنقد في الضرس: تكسره[1].

من خلال ما سبق يتضح أن النقّد لغة يحمل ثلاثة معان: تمييز الشيء، ووصف الجيّد، ووصف الرديء. وكل ذلك يرجع إلى إبراز الشيء وظهوره كما قال "ابن فارس".

2 - اصطلاحا: لا يخرج المعنى الاصطلاحي للنقد عن مدلولاته اللغوية؛ فهو عملية مشتركة تبدأ بالنظر والتمييز، وتنتهي ببيان الجيد من الرديء، والصحيح من الفاسد، وهو مستعمل بهذا المعنى في أكثر العلوم.

والذي يهمّنا هو النقد في مجال التفسير، باعتبار الدراسة تستهدف بيان الصنعة النقدية عند "الثعالبي" من خلال تفسيره، وأحسن تعريف وقفت عليه في هذا السياق، ما أورده صاحب كتاب نقد الصحابة والتابعين في التفسير؛ حيث عرّفه بقوله: **"هو تمييز التفسير بمجالاته المختلفة؛ مناهج ورجال، ومرويات وأقوال، وبيان الصحيح من الضعيف**[2].

ومن خلال ما سيأتي بيان لعناية الثعالبي بهذه المجالات، وبيان الصحيح من الضعيف.

---

[1] ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (5/ 467) .

[2] عبد السلام الجار الله، نقد الصحابة والتابعين للتفسير دراسة نظرية تطبيقية، (ص:16).

المطلب الثاني: مجالات النّقد ومرتكزاته عند الثعالبي

مرّ معنا تعريف النّقد في التفسير، واتضح أنّه يشمل عدّة جوانب أهمها تمييز مناهج المفسرين، بالإضافة إلى سبر المرويات، والوقوف على الأقوال التفسيرية، مع بيان الصحيح من الضعيف، وسأبذل جهدي للتركيز على هذه المجالات، وفيما يلي بيان ذلك.

الفرع الأول: نقد مناهج المفسرين

بتتبع الحركة التاريخية للتفسير يتضح أنّه شمل عدّة مناهج واتجاهات؛ منها ما يخدم القرآن ويبيّن معانيه وفق أسس سليمة، ومنها ما يستند إلى الرأي المذموم، وقد اهتم "الثعالبي" بانتقاد مناهج المفسرين، وتمييز الصحيح منها من السقيم؛ إذ نجده يصرّح في مقدمة تفسيره اعتماده تلخيص مهمّات "ابن عطية"، كما أثنى على تفسير "الطبري"، وخصّ بالذكر أيضا تفسير "الصفاقسي"... وهذه التفاسير التي ارتضاها تبيّن المنهج الذي يفضّله على غيره ويختاره؛ إذ إنها تندرج ضمن التفاسير التي اعتنت بالمأثور واستندت إلى الرأي المحمود، وقد أبان "الثعالبي" قيمة هذا المنهج، وحذّر من نقيضه.

فأما **تفضيله للتفسير بالمأثور** فقد نقل عن "ابن عبد البرّ" أهمية ذلك للمشتغل ببيان معاني القرآن؛ حيث قال: «وأولى الأمور بمن نصح نفسه، وألهم رشده؛ معرفة السنن التي هي البيان لمجمل القرآن، بها يُوصل إلى مراد الله تعالى من عباده فيما تَعبَّدهُم به من شرائع دينه الذي به الابتلاء، وعليه الجزاء في دار الخلود والبقاء، التي لها يسعى الألباء العقلاء، والعلماء الحكماء، فمن منّ الله عليه بحفظ السنن والقرآن، فقد جعل بيده لواء الإيمان، فإن فقه وفهم، واستعمل ما علم؛ دُعي في ملكوت السموات عظيما، ونال فضلا جسيما»[1].

وقد أكّد "الثعالبي" أهمية تفسيره انطلاقا من اعتماده على المأثور، فبعد أنّ فسّر قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران:14] ساق بعض الأحاديث في التزهيد من الدنيا، ثم قال: «وقد جاءت أحاديث كثيرة في التزهيد في الدنيا، ذكرنا من صحيحها وحسنها في هذا المختصر جملة صالحة لا توجد في غيره من التفاسير، فعليك بتحصيله، فتطّلع فيه على جواهر نفيسة، لا توجد مجموعة في غيره كما

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان، (1/ 119).

هي بحمد الله حاصلة فيه، وكيف لا يكون هذا المختصر فائقا في الحُسن، وأحاديثه بحمد الله مختارة، أكثرها من أصول الإسلام...»[1].

كما نقل عن "ابن عطيّة" مراتب المفسرين، وجعل الصحابة رضي الله عنهم في مقدمتهم، يتلوهم المبرّزون من أئمة التابعين ممن أخذ عنهم، وكثيرا ما يقدّم تفسير الصحابة على غيره، بل ويصرّح بذلك؛ ففي أحد المواطن انتقد "الطبري" و"الصفاقسي" ردّهم قول الجمهور في تفسير الآية، وبيّن أنّه تفسير صحابي، وهو مقدّم على غيره؛ حيث قال: « ...وما ذكَرَه الجمهورُ أحْسَنُ؛ لأن الخطاب خطابُ مواجهةٍ **ولأنه تفسير صحابيٍّ، وهو مقدّم على غيره**»[2].

وأما **التفسير بالرأي** فإن "الثعالبي" انتقد بشدّة الانسياق وراء الرأي المذموم، واستثنى من اعتمد على الرأي المحمود، حيث عقد فصلا في مقدمته يتعلّق بخطورة الكلام في تفسير القرآن بغير علم والجرأة عليه، وساق في ذلك عدّة أحاديث، ثم استدرك مبيّنا أن الأمر لا يعمُّ كبار المفسرين؛ إذ الظن بهم أنّهم لم يتكلموا في القرآن بغير علم، أو عن هوى[3]، وهذا ما يبرز مقصده من انتقاده.

وقد اتضح في عدة مواطن من تفسيره تحذيره من المفسرين الذين يعتمدون نقل الغرائب التي لا تستند إلى الصحيح من المنقول والمعقول، وفي ذلك يقول: «قال بعض الناس: إن رواية بلغتهم أن ملائكة النار الذين قال الله فيهم: ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المدثر:30] إنما ترتب عددهم على حروف: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ؛ لكل حرف ملك، وهم يقولون في كل أفعالهم: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، فمن هناك هي قوتهم... قال ع: وهذا من ملح التفسير، وليس من متين العلم. ت: ولا يخفى عليك لين ما بلغ هؤلاء، ولقد أغنى الله تعالى بصحيح الأحاديث وحسنها عن موضوعات الوراقين، فجزى الله نقاد الأمة عنا خيرا»[4].

---

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان، (2/ 16).

[2] المصدر نفسه، (3/ 404).

[3] المصدر نفسه، (1/ 140).

[4] المصدر نفسه، (1/ 156).

ومع أن "ابن عطية" اعتبر ما سبق من ملح العلم، إلاّ أن "الثعالبي" لم يرتض ذلك، مبيّنا أنّه من موضوعات الورّاقين، يقصد بذلك النُّسَّاخ الذين يضعون الأحاديث ويختلقون الروايات.

ونقل في مناسبة أخرى قول "القاضي عياض" على وجه التبني والاستشهاد، منكرا الاشتغال بما شذّ من التفسير، خاصة إذا احتمل ما يقدح في عصمة الأنبياء، وذلك في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ ﴾ [يوسف: 110] حيث أورد قول "عائشة" ﵂: "معاذ الله أن تظنّ الرسل ذلك بربها". مبيّنا أن المقصود حين استيأسوا ظنوا أن من وعدهم النصر من أتباعهم كذبوهم، وعلى هذا أكثر المفسرين. وساق وجّها آخر ثم علّق منتقدا من نسب الظن إلى الرسل بربها، قائلا: «فلا تُشغل بالك من شاذ التفسير بسواه مما لا يليق بمنصب العلماء، فكيف بالأنبياء...»[1].

ممّا سبق يتضح أنّ "الثعالبي" استند في نقده لمناهج المفسرين على النصوص الشرعية التي تنهى عن القول على الله بغير علم، كما أنّه ركّز على ردّ التفاسير المستندة إلى الروايات الموضوعة، واستبعد الشاذ من التفسير خاصة إذا تضمن المساس بعصمة الأنبياء، وفي هذا الصدد تجدر الإشارة أن الثعالبي يعتبر المنهج الأسلم يقتضي تأويل النصوص إذا احتمل ظاهرها ما ذُكر، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥ ﴾ [الأنعام: 35] نقل عن "مكي" و"المهدوي" أن الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، ثم ساق قول "ابن عطية" بتضعيف هذا القول؛ لأن اللفظ لا يقتضيه. ثم عقّب "الثعالبي" على "ابن عطية" بقوله: «وما قاله ع: فيه عندي نظر؛ لأن هذا شأن التأويل إخراج اللفظ عن ظاهره لموجب»[2]. ويقصد بالموجب عدم المساس بعصمة الأنبياء.

وبهذا تتضح بعض الجوانب النّقدية التي سلكها الثعالبي في تمييزه بين مناهج المفسرين، وأهم المرتكزات التي اعتمد عليها في ذلك.

---

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان، (3/ 357).

[2] المصدر نفسه، (2/ 460).

الفرع الثاني: نقد الثعالبي للإسرائيليات

عند الحديث عن نقد "الثعالبي" للإسرائيليات فإنه ينبغي استحضار معنى التمييز، ومعنى الردّ على ما يستقبح، وهي من المعاني الجوهرية في العملية النقدية، وقد بدت واضحة عند "الثعالبي" في هذا السياق؛ إذ إنه لم يكثر من نقل الإسرائيليات، وأغفل كثيرا مما ساقه "ابن عطية"، خاصة إن خرج عن الشرط الذي صرّح به صاحب المحرّر في مقدمة تفسيره؛ أنّه لا ينقل من القصص إلاّ ما لا تنفك الآية إلاّ به، وهذا ما يُظهر الحسّ النقدي عند "الثعالبي"؛ حيث أعرض عمّا نقله "ابن عطية" من الأخبار في قصة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة وإخراجه من الجنّة؛ لأن فهم الآية لا يتوقف عليها.

وقد ينقل بعض التفاصيل اختصارا، وبصيغة التمريض، ومن ذلك قصة إهباط آدم عليه السلام ومكان نزوله. كما يشير إلى ضعف سند بعضها؛ ففي قصة مائدة بني إسرائيل، قال: «وأكثر الناس في قصص المائدة مما رأيت اختصاره لعدم سنده»[1] .

كما نجد أن "الثعالبي" ينتقد كثيرا مما ينقله من الإسرائيليات إذا تعارضت مع أصول الشريعة، فيبيّن قبحها ويردّ عليها، فعند تفسيره لقوله تعالى: **{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ}**[البقرة: 102] انتقد الرواية الإسرائيلية في شأن "هاروت" و"ماروت" مع كوكب الزهرة، حيث قال: «وما يذكر في قصتهما مع الزهرة كله ضعيف وكذا قال: ع. ت: قال "عياض": وأما ما ذكره أهل الأخبار، ونقله المفسرون في قصة "هاروت" و"ماروت". وما روي عن "علي"، و"ابن عباس"- ﷺ- في خبرهما وابتلائهما، فاعلم- أكرمك الله- أن هذه الأخبار لم يرو منها سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيئا يؤخذ بقياس، والذي منه في القرآن، اختلف المفسرون في معناه، وأنكر ما قال بعضهم فيه كثير من السلف، وهذه الأخبار من كتب اليهود، وافترائهم كما نصه الله أول الآيات»[2].

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الأعراف: 189]؛ ذكر خلاف المفسرين؛ ففريق منهم قال إلى أن المقصود

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان، (2/ 439).

[2] ينظر: المصدر نفسه، (1/ 288).

جنس الآدميين، وذهب بعضهم إلى أن المقصود آدم وحواء التي حملت فجاءها الشيطان، فأشار عليها أن تسمي ولدها عبد الحارث، وهو اسم إبليس، وقال لها: إن لم تفعلي قتلته، فزعموا أن آدم وحواء أطاعا الشيطان. ثم انتقد "الثعالبي" هذه الرواية بقوله: «ويُنزّه آدم وحواء عن طاعتهما لإبليس، ولم أقف بعد على صحة ما روي في هذه القصص، ولو صح لوجب تأويله، ثم نقل حديثا يستند إليه أصحاب هذا القول؛ فعن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال لها: سميه عبد الحارث، فسمته عبد الحارث، فعاش ذلك، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»[1]. ثم نقل عن "الترمذي" أن الحديث حسن غريب وبين بعض علله، كتفرد "عمر بن إبراهيم" به عن "قتادة"، وعمر شيخ بصري. وأوضح بعدها أن الحديث ليس فيه أنّهما أطاعاه، والواجب التوقف، والتنزيه لمن اجتباه الله، وحُسن التأويل ما أمكن، ونقل بعدها كلام "ابن العربي" في توهين هذا القول وتزييفه، وأنّه وراد في ضعيف الحديث وفي الإسرائيليات التي ليس لها ثبات، ولا يعول عليها من له قلب، والقول الأشبه بالحق: أن المراد بهذا جنس الآدميين[2].

من خلال ما سبق تتضح أهم المرتكزات التي استند إليها الثعالبي أثناء نقده للإسرائيليات، ومنها:

- ضعف الأسانيد.

- الاحتجاج بكبار العلماء في تفنيد ما لم يصحّ؛ وقد اتضح لي أنّه يعتمد على فقه الحديث، ويستند في ذلك إلى شُرَّاحِه "كالقاضي عياض"... كما يحتجّ بأهل الصنعة النقدية في جانب الرواية؛ حيث نقل عن الترمذي مثلا تعليل الحديث الوارد في حمل حواء... وهذا ما يجعل الرواية منتقدة من جميع الوجوه.

- الاستناد إلى عصمة الأنبياء، ووجوب تأويل الروايات التي يظهر منها القدح في ذلك إن صحّت، وهذا ما يؤكده قوله: «وينزه آدم وحواء عن طاعتهما لإبليس، ولم أقف بعد على صحة ما روي في هذه القصص، ولو صح، لوجب تأويله...»[3].

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأعراف، رقم: (3077)، (276/5)، وقال: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه».

[2] ينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان، (103/3).

[3] المصدر نفسه

الفرع الثالث: نقد الثعالبي للأقوال التفسيرية

المتتبع لصنيع "الثعالبي" في تفسيره يتضح له ممارسته للنقد أثناء إيراده لأقوال المفسرين؛ إذ يُضعّف بعضها، ويصحّح ويختار بعضها الآخر، مستندا في ذلك إلى جملة من القواعد والمرتكزات، أهمها:

- يعتمد على القرآن في ترجيح الأقوال وردّ ما خالفها: قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: 43]، «قيل: إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع. ت: وفي هذا القول نظر، وقد قال تعالى في «مريم»: ﴿ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي ﴾ [آل عمران: 43]، وقالت فرقة: إنما قال: مع لأن الأمر بالصلاة أولا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله: مع شهود الجماعة. ت: وهذا القول هو الذي عول عليه ع: في قصة مريم عليها السلام»[1].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ [آل عمران: 66] نقل انتقاد ابن عطية للطبري تفسيره للعلم على الحقيقة؛ أي مما تلقاه أهل الكتاب من جهة كتبهم وأنبيائهم، فانتصر "الثعالبي" للطبري منتقد "ابن عطية" بقوله: «وما قاله "الطبري" أبين، وهو ظاهر الآية، ومن المعلومِ أن أكثر احتجاجاتهم إنَّما كانت تعسُّفا، وجحدا للحق»[2].

- يستند إلى السنة وقواعد الترجيح المتعلّقة بها: ومما يظهر ذلك أنّه نقل عن "ابن عطية" الخلاف الوارد في المسجد الذي أُسّس على التقوى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ ﴾ [التوبة: 108]؛ حيث ذهب "ابن عباس" ﷺ وفريق من الصحابة والتابعين إلى أنّ المراد به مسجد قباء، وروي عن "ابن عمر" و"أبي سعيد" و"زيد بن ثابت" ﷺ أنّه مسجد النبيّ ﷺ، ثم بين – أي "ابن عطية" ونقل "الثعالبي" عنه ذلك- أنّ القول الأول يليق بالقصة التي أوردها المفسرون في حسد بعض المنافقين لمن بنى مسجد

[1] ينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان، (103/3).

[2] المصدر نفسه، (57/2).

قباء، ومحاولة تنفير النّاس عنّه ببناء مسجد ضرار، إلاّ أنّ القول الثاني مرويّ عن النبيّ ﷺ، ثمّ رجّح هذا الأخير بقوله: «ولا نظر مع الحديث»[1].

ومن الأمثلة أيضا أنّه نقل الخلاف في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٰ ١٤ ﴾ [طه: 14]، مبيّنا أهم الأقوال، ثم اختار أصحها لموافقته لحديث النبي ﷺ: «من نَسي صلاة، فليصلِّها إذا ذكرها فَإِنَّ ذَلك وقتها قال الله تعالى: أقم الصَّلاة لذكري»[2] ثم علّق بقوله: «فقد بيّن لك ﷺ ما تحتمله الآيةُ، واللهُ الموفِّقُ بفضله وهكذا استدل "ابن العربي" هنا بالحديثِ... »[3]. وبهذا يتضح أنّه يعتمد قاعدة: إذا ثبت الحديث وكان في معنى أحد الأقوال فهو مرجح له عما خالفه[4].

ينتقد الأقوال المخصصة للمعنى دون دليل: ومما يُذكر في هذا السياق نقله للخلاف الوارد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ ﴾ [البقرة: 195] قيل: معناه: في أعمالكم بامتثال الطاعات روي ذلك عن بعض الصحابة، وقيل: المعنى: وأحسنوا في الإنفاق في سبيل الله، وفي الصدقات، قاله "زيد بن أسلم"، وقال "عكرمة": المعنى: وأحسنوا الظن بالله عز وجل. ثم انتقد ما سبق بقوله: «ولا شك أن لفظ الآية عام يتناول جميع ما ذكر، والمخصص يفتقر إلى دليل»[5].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ ﴾[الذاريات: 49] نقل عن "مجاهد": أَنَّه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار، والشقاوة والسعادة، والهُدَى والضلال، والسماء والأرض، والسواد والبياض، والصِّحَّةِ والمرض، والإيمان والكفر، ونحو هذا، وبيّن ترجيح "الطبري" له، ثم ساق قول "ابن زيد" وغيره: «هي إشارة إلى الأنثى والذكر من كل حيوان». فتعقّبه محسّنا المعنى الأول لعمومه؛ حيث قال: «ت: والأَوَّلُ أحسن لشموله لما ذكره ابن زيد»[6].

---

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان، (3/ 214).

[2] أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب من نسي صلاة فليصل إذا ذكر، ولا يعيد إلا تلك الصلاة، رقم: (597)، (1/ 122). ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها، رقم: (314)، (1/ 477).

[3] الثعالبي، الجواهر الحسان، (74/4).

[4] لمزيد من التفصيل ينظر: بلال أودني، قواعد الترجيح المتعلقة بالسنة والآثار عند الثعالبي من خلال تفسيره الجواهر الحسان، الإحياء، 20، 24، 2020.

[5] الثعالبي، الجواهر الحسان، (1/ 404).

[6] المصدر نفسه، (5/ 305)

كما استند إلى اللغة أيضا، ولكثرة اعتماده عليها سواء في بيان معاني الآيات، أو في الاستطراد في بعض التفصيلات خصصت لذلك الفرع الموالي.

الفرع الرابع: النقد اللغوي عند الثعالبي

لقد أدرك "الثعالبي" أهمية اللغة العربية في فهم القرآن الكريم، فقد أنزله الله سبحانه وتعالى بلسان عربي مبين؛ لذا كان من أهم شروط المفسر اضطلاعه بها، وقد برز هذا الجانب في تفسير الجواهر من خلال مناقشته للمسائل اللغوية وانتقاد بعضها، واختيار ما يراه يتوافق مع الصواب. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ [الأنعام: 100] قال الثعالبي: «قال ص: ... والجمهورُ على نَصْب {الْجِنَّ}، فقال "ابن عطيَّة" وغيره: هو مفعولٌ أول لـ: {جَعَلُوا} ، و: {وشُرَكَاءَ} الثاني، وجوَّزوا فيه أن يكون بدلا من {شُرَكَاءَ} ، و { لِلَّهِ} في موضع المفعول الثاني، و{شُرَكَاءَ} الأول، وردَّه "أبو حيان" بأنّ البدل حينئذ لا يصحُّ أن يحل محلّ المبدل منه؛ إذ لو قلت: وجعلوا للَّه الجنَّ، لم يصحَّ، وشرط البدل أن يكون على نيَّة تكرار العامل على الأشهر، أو معمولاً للعامل في المُبْدَلِ منه على قول، وهذا لا يصحُّ كما ذكرنا، قلت: وفيه نظر. انتهى، قلت: وما قاله الشيخ "أبو حيان" عندي ظاهر، وفي نظر "الصفاقسي" نظر»[1].

والملاحظ أنّ "الثعالبي" لا يورد غالبا الأدلة على اختياره، ويكتفي بالإشارة إلى أن هذا القول هو الظاهر، وأن في غيره نظر، وقد تتبعت عدّة مسائل سلك فيها هذا المسلك فاتّضح أنّ الحق معه غالبا، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: 40]، أورد الثعالبي أن: ﴿ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ استثناء منقطع، ثم نقل عن "الصفاقسي" ردّه على "الزجاج" وغيره ممن أجاز أن يكون في موضع جر بدلا من حق، أي: بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الإقرار لا موجب الإخراج، ومثله: ﴿ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [المائدة: 59]. وهو ما حسّنه "الثعالبي" من حيث المعنى، و اعتبر الانتقاد عليه مزيف[2].

---

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان، ((2/ 501).

[2] المصدر نفسه، (4/ 127).

وبتتبع المسألة اتضح أن المجيزين للوجه الذي تبنّاه "الزجاج" ودافع عليه "الثعالبي" قد استندوا إلى المعنى، وممن قرّر ذلك "الفراء"، و"الزمخشري"، وقد انتقده "أبو حيان"؛ معتبرا أنّ تقديره بغير موجب سوى التوحيد، تمثيل للصفة؛ جَعل إلاّ بمعنى سوى، ويصحّ على الصفة، فالتبس عليه باب الصفة بباب البدل، ويجوز أن تقول: مررت بالقوم إلا زيد؛ على الصفة لا على البدل[1] ، وقد انتصر "الخفاجي" للزمخشري وردّ على "أبي حيان" بقوله: «وما ذكره ليس بوارد على "الزمخشري"؛ لأنّ ما ذكره بيان لحاصل المعنى، وليس مثله ممن يلتبس عليه باب بباب، وهو استثناء، لكن ظاهر مقابلته بالمنقطع أنه متصل على هذا وهو ظاهر؛ لدخول المستثنى في الحق؛ إذ تقديره في الحقيقة لا موجب لإخراجهم إلاّ التوحيد، وتقديره بغير لا يتعين... فما ذكره مغالطة لا طائل تحتها، مع ما فيه من الاختلال وإن تبعه بعضهم»[2].

والخلاصة أنّ "الثعالبي" يؤيّد القول المشتهر عند النحويين، ويركز على المعنى ولو على حساب الوظيفة الإعرابية، ومع أنّه يكثر النّقل عن "الصفاقسي" إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من انتقاده، وقد سلك مسلك الاختصار والإشارة دون التفصيل.

ولقد برزت جوانب أخرى سلك من خلالها "الثعالبي" المسلك النقدي، واتبع أسلوبا قائما على الاحترام والتقدير للمخالف، دون سب أو قذف أو تعيير، وهذا ما سيتضح في المطلب الموالي.

[1] ينظر: الزمخشري، الكشاف، (160/3). الفراء، معاني القرآن، (2/ 227). أبو حيان، البحر المحيط، (7/ 515).

[2] الخفاجي، حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي، (6/ 299).

المطلب الثالث: أسلوب الثعالبي في الانتقاد

شهد أهل العلم للثعالبي بالزهد والورع، قال "البكري": «كان شيخنا "الثعالبي" رجلًا صالحا، زاهدا عالما، عارفا وليّا....»، وقال "التنبكتي": «الشيخ الإمام الحجة، العالم العامل الزاهد الورع ولي اللَّه، النّاصح الصالح العارف باللَّه؛ أبو زيد، شهر "بالثعالبي"... من أولياء اللَّه المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد اللَّه الصالحين». وقال أيضا: «وهو ممن اتفق النّاس على صلاحه وإمامته، أثنى عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح، كالإمام "الأبيّ" و"الولي العراقي" والإمام "الحفيد ابن مرزوق"» [1]. وقد اتضح ورعه وصلاحه في سيرته كما ظهر في مؤلفاته؛ حيث امتاز أسلوبه بالأدب، وفيما يلي بيان ذلك.

الفرع الأول: حثّه على التأدب مع العلماء:

أوصى "الثعالبي" في مواطن عديدة بضرورة صيانة اللسان من الولوغ في الأعراض، والابتعاد عن المراء والجدال في العلم، حيث قال: «والمراء مشتق من المرية، وهو الشك، فكأنه المشاككة. ت: وفي سماع "ابن القاسم"، قال: كان "سليمان بن يسار" إذا ارتفع الصوت في مجلسه أو كان مراء، أخذ نعليه ثم قام. قال "ابن رشد": هذا من ورعه وفضله، والمراء **في العلم منهي عنه**، فقد جاء أنه لا تؤمن فتنته، ولا تفهم حكمته»[2]. وقال في موطن آخر: «لا يجوز الجدال والمناظرة إلا لإظهار الحق ونصرته ليعرف ويعمل به، فمن جادل لذلك فقد أطاع، **ومن جادل لغرض آخر فقد عصى وخاب**، ولا خير فيمن يتحيل لنصرة مذهبه مع ضعفه وبعد أدلته من الصواب»[3]. فتأمل كيف يعتني بتصحيح النوايا وعدم الاعتراض لحظوظ النّفس.

وقد أكّد على احترام العلماء وتوقيرهم والتأدب معهم؛ حيث ذكر عند تفسير قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الحجرات: 2] أنّه يُكره رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ، كما يُكره أيضا رفعه بحضرة العالم وفي المساجد، وبيّن أنّ هناك آثارا تؤكد ذلك[4].

---

[1] نيل الابتهاج، التنبكتي، (ص:257).

[2] الثعالبي، الجواهر الحسان، (3/ 518).

[3] المصدر نفسه، (4/ 298).

[4] المصدر نفسه، (2/ 160).

وقد التزم "الثعالبي" ما قرّره؛ حيث تميّز أسلوبه في النقد بالاحترام والتأدب مع العلماء والمفسرين، ومعرفة قدرهم دون التعرض لهم بجرح أو تسفيه، كما أنّه لا ينتقد غالبا إلاّ في المواطن التي تستدعي ذلك، وهذه وصيّته للطلاب في كتابه "الذهب الإبريز" حيث قال: « اترك الاعتراض على العلماء ما أمكن، هذه وصيتي لك»[1].

وفي "الجواهر" مواطن تنضح بالاحترام والتقدير، وعدم المبالغة في النكير، فقد شدّد بعض العلماء على "ابن عطية" ردّه لقراءة "حمزة": **{وَالْأَرْحَامِ}** [النساء: 1] بالخفض بحجّة عدم جوازها عند نحاة البصرة؛ لأنّ فيها عطف ظاهر على مضمر مخفوض وهو ما لا يجوز إلاّ عند ضرورة الشعر، وبين تساهل بعض النّحاة في قبولها، فاكتفى "الثعالبي" بانتقاد ما ذهب إليه مدعّما ذلك بالأدلة، وتخيّر في كلامه ما سلم من العبارات المنقصة من قدره[2].

بل إنّ "الثعالبي" كثيرا ما يترحّم على من انتقدهم، ويتفق معهم في بعض ما ذهبوا إليه، ويلتمس لهم العذر ما ستطاع إلى ذلك سبيلا، وفيما سيأتي بيان ذلك.

الفرع الثاني: ترحمه على العلماء والتماس العذر لهم

بُعث النبي ﷺ رحمة للعالمين، وقد أوصى الله سبحانه وتعالى بضرورة التخلق بهذا الخلق العظيم، الذي ينبغي أن يكون رباطا وثيقا بين المسلمين عموما، وبين حملة العلم خصوصا؛ فالعلم مبناه على الرّحمة والرّفق، لذا دأب كثير من المحدّثين أن يكون أوّل ما يحدّثون به؛ حديث "عبد الله بن عمرو بن العاص" أن النبي ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[3]. وقد بدا هذا الخلق واضحا في أسلوب "الثعالبي"؛ إذ إنّه يترحم على المخالف، ويبحث عن مواطن الاتفاق رغم انتقاده، ومن ذلك ردّه على "ابن عطية" في سبب التكرار الوارد في الآية: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢ ﴾ [النساء:131-132]؛ حيث قال "ابن عطية": «قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تنبيه على موضع

---

[1] الثعالبي، الذهب الإبريز في تفسير وإعراب بعض آي الكتاب العزيز، (ص: 54).

(2) ينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان، (1/ 412).

[3] أخرجه أبو داود، باب في الرحمة، رقم: 4941، (7/ 298). والترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم: 1924، (4/ 324). وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

الرجاء لهذين المفترقين، ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تنبيها على استغنائه عن العباد، ومقدمة للخبر بكونه غنيا حميدا، ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ مقدمة للوعيد، فهذه وجوه تكرار هذا الخبر الواحد ثلاث مرات متقاربة». فردّ عليه "الثعالبي" بقوله: «وفي تمشيته هذه عندي نظر، والأحسن بقاء الكلام على نسقه فقوله **رحمه الله**: «تنبيه على موضع الرجاء لهذين المفترقين» **حسن**، وإنما الذي فيه قلق ما بعده من توجيهه»[1].

فتأمل كيف يتفق مع ابن عطية فيما يراه صوابا، وينتقده في غير ذلك، معتمدا أسلوبا لائقا، يتضح من خلاله أنّه لا يبخس النّاس أشياءهم، ولا ينتقد لحظوظ نفسه، فما رآه حسنا موافقا للحق الذي يعتقده حسّنه، وما رآه مخالفا لما يعتقده ردّه بأدب واحترام.

وقد ينتقد غيره موضّحا القول المحتمل الذي استندوا إليه، وخير مثال في هذا السياق انتقاده للطبري وابن عطية في حملهما للخطاب في قوله تعالى سبحانه وتعالى: **{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ }** [النساء: 147] على المنافقين؛ حيث أبدى تعجبه من تخصيصهم للآية رغم أنّ حملها على العموم أحسن، ثمّ ذهب يبحث لهما عن مخرج، حيث قال: «ويظهر- والله أعلم- أنهما عوّلا في تخصيص الآية على قوله تعالى: {وآمَنْتُمْ} وهو محتمل أن يحمل في حق المنافقين على ظاهره، وفي حق المؤمنين على معنى: «دمتم على إيمانكم» ، والله أعلم»[2].

وقريب ممّا سبق فإن "الثعالبي" يُظهر الوجه الذي سلكه المردود عليه رغم أنّه يخالفه؛ فقد انتقد "ابن عطية" اعتباره القول بأنّ إسماعيل عليه السلام عربي فيه نظر، حيث قال "الثعالبي": «ت: النظر الذي أشار إليه لا يخفى عليك وذلك أن إسماعيل والده إبراهيم عليه السلام أعجمي، وتعلم إسماعيل العربية من العرب الذين نزلوا عليه بمكة حسب ما ذكره أهل السيرة فهذا وجه النظر الذي أشار إليه، وفي نظره رحمه الله نظر....»[3].

---

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان، (2/ 310).

[2] المصدر نفسه، (2/ 323).

[3] المصدر نفسه، (3/ 48).

وقد يلتمس العذر للمردود عليه كون الحديث لم يبلغه في تفسير الآية؛ وممّا يبيّن ذلك أنّه أورد حديثا عن النبي ﷺ في معنى: ﴿ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون، 104]، ثمّ قال: «هو المعول عليه في فهم الآية، وأما قول البخاري: كالحون معناه: "عابسون" فغير ظاهر، ولعلّه لم يقف على الحديث»[1].

وهو في غالب أحواله ينتقد غيره ثمّ يُرجع العلم إلى الله؛ وهذا ما يبيّن أنّه لا يبرئ نفسه من الخطأ ولا يدعي الحقيقة المطلقة، فهو بذلك يعلمنا الأدب في مناقشة المسائل العلمية، وعدم العجب بالنّفس والاعتداد بها.

بهذا الأسلوب من الأدب الرفيع والاحترام والتقدير كان "الثعالبي" يمارس العملية النقدية، فلا تقرأ تجريحا ولا تشهيرا ولا تحاملا ولا تحقيرا، وذلك _ لعمري _ أدب العلماء ومسلك الأتقياء، فرحمه الله وأجزل له المثوبة والعطاء.

[1] الثعالبي، الجواهر الحسان، (4/ 164).

خاتمة:

في نهاية هذه الورقة البحثية، وبعد أن تطرقت إلى جوانب النقد عند "الثعالبي"، مبيّنا بالشواهد أهم المرتكزات التي اعتمد عليها، موضّحا الأسلوب الذي سلكه في ذلك، توصلت إلى ما يلي:

_ اشتملت العملية النقدية عند صاحب "الجواهر الحسان" عدّة جوانب ومجالات، أهمها: مناهج المفسرين، الإسرائيليات، الأقوال التفسيرية، المباحث اللغوية...

_ اتضح أن "الثعالبي" يعتدّ بالتفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المحمود.

_ استند "الثعالبي" في نقده لمناهج المفسرين على النصوص الشرعية التي تنهى عن التقوّل على الله بغير علم، كما ردّ التأويل المستند إلى الروايات الموضوعة، واستبعد الشاذ من التفسير خاصة إذا تضمن المساس بعصمة الأنبياء، وهو يرى وجوب تأويل النصوص إذا احتمل ظاهرها ما ذُكر.

_ اعتمد في نقد الإسرائيليات على ضعف الأسانيد، واحتجّ بكبار العلماء في تفنيد ذلك.

_ استند إلى الآيات القرآنية والسنة النبوية وقواعد الترجيح المتعلّقة بها في اختيار الأقوال التفسيرية وردّ ما خالفها.

_ انتقد الأقوال المخصصة للمعنى دون دليل.

_ اعتمد القول المشتهر عند النحويين، وركّز على المعنى ولو على حساب الوظيفة الإعرابية.

_ أكثر النّقل عن "ابن عطية" و"ابن العربي" و"الصفاقسي"... ومع ذلك فقد ردّ عليهم في كثير من المسائل، وهذا ما يُبرز شخصية "الثعالبي" النقدية.

_ سلك في الغالب مسلك الاختصار والإشارة دون التفصيل في سرد الأدلة، وذلك راجع إلى قصده من التأليف.

_ التزم "الثعالبي" بأدب جمّ أثناء الانتقاد، ممّا يعكس شخصيته المعروفة بالزهد والورع؛ إذ نجده يترحم على المردود عليه، ويتعقبه بأحسن العبارات، بل ويلتمس له العذر أحيانا بما يراه مناسبا للمقام.

وفي الأخير فإن تفسيرا بمثل هذه الخصائص حريّ أن يكون قبلة للمشتغلين بالتفسير وعلوم القرآن، وميدانا خصبا لترقيق القلوب والقرائح والأذهان، وذلك بمدارسته في المساجد والمعاهد والكليات، بالإضافة إلى العناية بالجوانب العلمية في هذا السفر العظيم، وفي هذا السياق أقترح مجموعة من المواضيع التي تحتاج إلى تحرير وتأصيل من خلال "الجواهر الحسان"، ومن ذلك:

_ العناية أكثر بالجانب النقدي في تفسير "الثعالبي".

_ جمع ترجيحاته ودراستها في ضوء أقوال المفسرين.

_ العناية بالجانب الوعظي في تفسير "الجواهر الحسان" فهو ميدان خصب للطلبة عموما، والمتخصصين في الدعوة خصوصا. هذا جهد المقلّ فأسأل الله التوفيق والسداد.

قائمة المصادروالمراجع:

1- أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ط: 1، 1420 هـ

2- أبو زكريا الفراء، معاني القرآن، ت: أحمد النجاتي، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ط:1، د، ت.

3- أحمد التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ت:عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، ليبيا،ط:2، 2000م.

4- جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي – بيروت، ط:3 - 1407هـ

5- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط:15، 2002م.

6- شمس الدين السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت ط.

7- شهاب الدين الخفاجي، حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي، دار صادر – بيروت، د، ت،ط.

8- عادل نويهض، معجم المفسرين، مؤسسة نويهض ، بيروت ، ط:3، 1409 هـ/1988 م.

9- عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط: 2، 1982م.

10- عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط:2 ، 1408 هـ/1988م.

11- عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ت: محمد معوض وعادل عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:1، 1418 هـ

12- عبد الرحمن الثعالبي، الذهب الإبريز في تفسير وإعراب بعض آي الكتاب العزيز، ت: محمد شايب، دار الكتب العلمية، لبنان، 1439هـ،2018م.

13- عبد السلام الجار الله، نقد الصحابة والتابعين للتفسير دراسة نظرية تطبيقية، دار التدمرية، الرياض، ط:1، 2008/1429م.

14- محمد الكعبي، التفسير والمفسرون في غرب أفريقيا، دار ابن الجوزي، السعودية، ط:1، 1426هـ.

15- محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ت: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط:1، 1424هـ - 2003م.

المقالات العلمية:

_ بلال أودني، قواعد الترجيح المتعلقة بالسنة والآثار عند الثعالبي من خلال تفسيره الجواهر الحسان، الإحياء، 20، 24، 2020.